الأدب التلمساني في العهد الزياني الثاني
(749 - 952 هـ)

أ/نورية بن عدي
جامعة تلمسان

تعتبر تلمسان من المدن الجزائرية الأكثر عراقة وقدما ،حيث كانت على مر الزمان محط أنظار الطامعين من الغزاة والمغامرين ،وقد سطع نجمها حين اتخذها الزيانيون عاصمة لهم لعدة قرون ،فبرزت كعاصمة للفن والثقافة والعمران ،كما نالت وبجدارة شهرة واسعة من وراء الاحتفالات الأسطورية التي كانت تقام بها تخليدا لميلاد سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام .

فالدارس لأدب المغرب العربي في فترة الوجود الزياني يلفي تشابها صريحا في مصير الدول الثلاث المعمرة آنذاك بشمال إفريقيا ،والتي هي إلى جانب الزيانيين في الوسط،الحفصيون في الشرق والمرينيون في الغرب ،وقد عدت الدولة الموحدية في السياق التاريخي للأحداث بمثابة الجذع الذي تفرعت منه هذه الفروع،بعد أن تعرض كيان هذه الدولة الواهي إلى سياط أحداث الفرقة والتشتت.

ولعلنا لا نجانب الصواب حين نقول أنّ أسبابا أخرى إلى جانب مشكلة الوجود قد تضافرت وتشابكت لتحرك مجريات الحروب والمعارك في جميع الاتجاهات والاحتمالات الممكنة،من الشرق نحو الوسط ،ومن الغرب نحو الوسط،وأحيانا من الوسط نفسه نحو الجبهة الشرقية أو الغربية ،وقد يحدث أن يتغير الاتجاه نحو الجنوب .وكل هذا ضمن أحداث ووقائع دامية ،وحصارات مأساوية ضربت بخيوطها العنكبوتية بين الإخوة من المسلمين،وضربت عرض الحائط كل مقومات الجوار وقيم التعايش السلمي. وكان من أوخم نتائجها أنها أضعفت الجميع ،الأمر الذي أدى إلى سقوط غرناطة.. " وهكذا كان القرن الثامن قرن عراك بين مرين وعبد الواد ،وانتهى بضعفهما معا،وجروا معهم في الضعف دولة غرناطة ، إذ كانت تستمد منهم عسكريا وماليا وأدبيا" [1].

وعلى قدر وخامة النتائج تتعدد الأسباب ولعل المقام هنا ليس مقام بحث في الأسباب والعلل .إلا أننا نتعمد ذكر بعض هذه الأسباب ، وذلك أن السياسة بتفاعلاتها قد تتحكم في مجريات الساحة الثقافية والأدبية بشكل واضح.خاصة عندما تكثر أسباب تهافت الحكام وراء المصالح الذاتية وتصفية الخلافات الشخصية بالحروب في غياب الحنكة السياسية ،كما حدث بين أبو حمو موسى الثاني وولي عهده أبو تاشفين [2].وغير ذلك من الأحداث التي تولدت عن التطاحن العائلي الدائم حول العرش .وذلك كله في ظروف سادها التنافس حول مراكز النفوذ وأسباب القوة ،والتكالب على ولاء القبائل المتمردة في الجنوب[3]

وجعلها خاضعة "ففي اعتمادهم على تحقيق رغبة الاستيلاء كانت قوتهم تتمثل في عنصر الأعراب الرحّل وأغلبهم من المرتزقة ، وعلى قوة السكان الأصليين من القبائل العربية والبربرية "[4].أضف إلى ذلك الامتزاج الحضاري والأصول المتفرقة لأهل المغرب ،خاصة بعد وراثة الأندلس. ولابن خلدون رأي في هذا إذ يقول : " وأما المغرب العربي فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة"[5] وقوله "وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس إلى ملوك الموحدين وزناتة لهذا العهد "[6]

غير أن هذا التمازج العرقي والحضاري الذي صب في أرجاء المغرب العربي عامة وتلمسان خاصة لم يُعفِ تلمسان من مكابدة الأمرين بعد أن توسطت بحدودها المطاطية الجبهتين؛ المرينية غربا والحفصية شرقا. وعجيب كيف صمدت تلمسان أمام كثرة الوقائع والمعارك .حتى أن يغمراسن [7]وحده بلغت حروبه مع العرب خاصة اثنتين وتسعين .أضف إلى ذلك الحصارات المتتالية. وقد كان أشدها وطأة حصار السلطان يوسف بن يعقوب المريني(698_706هـ) الذي دام زهاء ثماني سنين وثلاثة أشهر. وضيق بتلمسان تضييقا لم يُرمثله [9]. حيث "كان على أهل تلمسان بلاء عظيم من غلاء الأسعار وموت الرجال وتثقيف من يخاف منه الفرار...فلم يبق فيها من الرعية إلا نحو المائتين"[10].

هذه المدينة التي وصفها البكري بأنّها قاعدة المغرب الأوسط ومقصد تجار الآفاق قد أذعنت لقدرها المأساوي فأضحت " مساكن بلا ساكن،ومنازل بغير نازل،ومعاهد أقفرت من متعاهد،تبكي عليها فتسكب الغمام الهمع،وترثي لها فتندب الحمام الوقع "[11].

يبدو أن لتلمسان أثر خفي على النفوس ،فهي تتلذذ بتعذيب قاطنها وضاعنها. وليس هناك بين الشعراء من امتلأ صدره بحب تلمسان والحنين إلى أحضانها أكثر من ابن خميس التلمساني ،حتى طفا حبها في أشعاره كسفينة ضائعة تبحث عن مرفأ سلام أبدي .فناداها متشكيا في البعد عن الدار والحنين إليها :

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو
منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ
وداري بها الأولى التي حيل دونها
مثار الأسى لو أمكن الحنق اللبخ [12]

ولعل ما يزيد هذه الأبيات صدقا هو وفاء الرجل لمسقط رأسه ،وأيام طفولته،وهو كما يرى كل من تذوق حب تلمسان من خلال أشعاره، معذور إن أسال عواطفه وأذاب خباياه بين يدي قصيدة تصف سحر تلمسان ، فينسجم سحر المكان مع سحر البيان للأجل ميلاد الإبداع الذي تطرب له الأسماع ،وتنتحر فيه الأوجاع . ولن يحصل هذا إلا بوقفة مناجاة تجمع الوريط الساحر بابن خميس الشاعر :

وإن أنسى لا أنسى الوريط ووقفة
أنافح فيها روضه و أفاوح
مطلا على ذاك الغدير وقد بدت
لإنسان عيني من صفاه صفائح
لئن كنت ملآن بدمعي طافحا
فإني سكران بحبك طافح
قراح أتى ينصب من رأس شاهق
بمثل حلاه تستحث القرائح
أرق من الشوق الذي أنا كاتم
وأصفى من الدمع الذي أنا سافح[13]

فوراء جدار المآسي يتبدى بصيص من النور الفكري والأدبي الذي يعزى بأعجوبة إلى هذا الزخم الهائل من الأحداث السياسية. إذ يرى بعض الدارسين أن الغزو المريني وعلى الرغم من حصاراته المميتة ،قد كان له يدا في دفع عجلة الأحداث الثقافية بمقتضى النمو الثقافي الذي شمل أقطار المغرب . مثلما فعل أبو عنان المريني "وقت استيلائه على تلمسان والمغرب الأوسط 750هـ/1354م، إذ يعزى له تشييد مدرسة سيدي الحلوي والجامع كذلك ،ثم الكثير من المعاهد التعليمية ولقاء العلماء وطلبة العلم ،مما كان له الأثر الايجابي في دفع الحياة الثقافية بتلمسان والمغرب الأوسط خلال هذه الفترة".[14]كما يعد مسجد أبي مدين الغوث تحفة فنية من تحف تلمسان،وقد بناه أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني (752.697هـ) سنة 740هـ. [15]

وليس بالغريب أن نقول أن الحياة السياسية القلقة والمتردية ،قد لا تثمر إلا دمارا وشقاء يتكبده كل أفراد المجتمع ،فتتقطع دروب التواصل وتكثر الوشايات حتى لا يكاد يسلم منها أحد ، الأمر الذي يؤدي لا محالة إلى هجرة الأفراد والجماعات .كما حدث في عهد المتوكل في أواخر أيام الدولة العبد وادية . وقد كانت فترة عصيبة ،حيث احتدّ فيها الشغب بالعاصمة تلمسان ،ولم يفلت من انعكاساتها حتى العلماء [16]من أمثال الونشريسي الذي اتهم بمحاولة الإطاحة بالمتوكل،فصودرت أمواله وهدمت داره سنة874هـ،ولم ينج بنفسه إلا بمعجزة [17] .

وقد كان لهذه الحادثة صدى في صفوف العلماء"، ولا مانع من أن يكون القاضي العصنوني الذي هاجر تلمسان سنة 875هـ وهاجر معه أفراد أسرته من المصابين بشظايا هذه التهمة ، إذ كانت أسرته من الأسر العلمية التي توارثت العلم قرونا"[18]

فلا غرو أن المحن والإحن التي تتوافق مع أجواء الحروب العكرة ، تكدر معها أجواء الإبداع والعطاء الفكري عامة .حيث تتآمر فيها الظروف ضد الصنف البشري فتختنق العواطف في كدر العيش ، وتتخبط إن نجت بين واقع مر وخيال يحتضر، .وتتوق النفوس إلى ليلة أمن وسلام تطمئن لها الأفئدة ، وتنعم فيها الكلمات بالحرية .

والدارس لتاريخ هذه الدولة يأنس لبعض الأمن في الدور الزياني الثاني 749 -592 هـ بخلاف الدور الأول . الأمر الذي قد يفسّر تكاثر العلماء في القرن الثامن. ولعله يعزي إلى الحكام ومدى حنكتهم السياسية ،من أمثال أبو حمو موسى الثاني الممسك بزمام الأمور المشجع للعلماء والأدباء "...وأما اعتناؤه بالعلم وأهله فأمر يقصر اللسان عن الإجابة به..."[19] .وفي موضع آخر من نظم الذر والعقيان في بيان شرف بني زيان، يقول الحافظ التنسي "...وله من النثر الرائق، والشعر الفائق ،ما ارتفعت صنعته من بلاغة الملوك ومن العلم العقلي والنقلي ما جلا نوره من الدنيا مدلهمات الحلوك.."[20]وله كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" الذي ورّثه لابنه وولي عهده بن تاشفين ،إلى جانب ما ورثه، من حب للعمران والفن،والتميز بإحياء ليلة المولد النبوي الشريف.

ففي هذه الفترة الطويلة التي يستشف منها رحيق الاستقرار ،الذي صحبه وعي بأهمية العلم، إتضح أن رجال الفكر والعلم قد تكاثروا .حيث جمعت تلمسان في القرن الثامن الهجري العلماء والشعراء وأهل الصلاح بتعدد روافدهم ومشاربهم .وقد كان الأمر أقل في القرنين السادس والسابع الهجريين ،ثم يلاحظ تراجعهم في القرن التاسع الهجري ،قبل أن يبدأ نجمهم في الأفول بعد ذلك .[21]

ومن منطلق إقرار الحق فإن الدولة الحفصية حملت على عاتقها مهمة حماية الديار الأندلسية [22]،في حين كانت الدولة العبد وادية تبحث عن وجه جديد غير وجه الإحن والمحن ،وتحيي بالعلم ما أماتته الحروب والنزاعات، لتطل من جديد على شرفات المجد .

وقد حق لها بحكم موقعها أن ترث من الأندلس بعض أسباب النضج الفكري والحضاري، وتحمل إلي جانب الحفصيين و المرنيين رايات الفكر والإبداع بعد نكسة الأندلس[23]،"وأما المغرب العربي فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة، واستحكمت به عوائدها بما كان لديهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس ، وانتقل الكثير من أهلها طوعا وكرها ، وكانت من اتساع النطاق ما علمت ،فكان فيها حظ وافر من الحضارة واستحكامها ، ومعظمها من أهل الأندلس..." [24] . هذا بالإضافة إلى الدور الفعال الذي لعبته الرحلات في شد حلقات التواصل الفكري ،والتمازج الحضاري ،بين المشرق والمغرب ، إما بطلب العلم أو الحج أو معا .ولاغرو إذا أصبح الأدباء والعلماء والفقهاء محط تنافس بين أمراء العروش الثلاثة، إلى جانب تنافسهم على الحدود الوهمية فالتنافس على الشعراء إذا قسناه باعتبار زمانه ومكانه لا باعتبار زماننا ومكاننا ،يعد من أهم مقومات النهوض الفكري فهو كما قيل "سلاح

خطير يقدم ويؤخر ،ويعز ويدل، ويعلي ويخفض ،ويمنح ويمنع ،ويقوي ويضعف ،بل يزوج ويطلق أحيانا ..." [25]وفي أيام العرب ولياليهم ما يشهد على هذا كله .

ومن خلال هذا المنطلق رغب بعض الأمراء المغاربة الحصول على شاعر يخلد مآثرهم ويذود عن صورتهم المشرقة بين العامة والخاصة ،مثلما كان لسيف الدولة الحمداني ، المتنبي ، وللمعز لدين الله الفاطمي ،بن هانئ الأندلسي .

لكن رغبة الزيانيين في امتلاك شاعر مخلد لمآثرهم، يلازمهم في سلمهم وحربهم ، لم تتحقق، على الرغم من أنهم كانوا رجالا يعرفون قدر العلماء ومنزلتهم .أما جيرانهم أمراء بني حفص الذين عرفوا بالتشجيع المستمر لحركة التأليف ولرجال العلم وخلق مجالات التنافس بينهم .فقد حضي سلطانهم "أبو عمرو عثمان الذي أخذ بزمام الدولة الحفصية سنة(839هـ) بشاعر بلاطه أبو الخلوف القسنطيني ،بعد أن فسح له المجال لإبراز مواهبه وقدراته ،وهو القائل مهللا بأيامه المشهودة ضد القبائل المشاغبة والمتعطشة للإغارة:

أو ما سمعت بيومه المشهود في
صراط إذ سارت به الأنباء
ملك العباد فأظهرت آراؤه
عفوا فتمم فضله الإبداء
فضل أقر به العداة ولم أجد
كالفصل قد شهدت به الأعداء [26]

غير أن ذلك لا ينفي وجود بعض مظاهر الاحتفاء والتملق للملوك الزيانيين عند بعض المؤلفين من أمثال الحافظ التنسي الذي ألف كتابه :"نظم الذر والعقيان في بيان شرف بني زيان".حيث نوع فيه تنويع الجاحظ في أسلوبه في كتابه الحيوان بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث كي لا تمل منه الأسماع[27] .وجعل التعريف بآل زيان وأمرائهم أبا عن جد همه الأكبر وهاجسه الأقوى ، اعترافا منه بجميل معاصره السلطان المتوكل وجزاء على ما أولاه من معروف، فنهض لخدمته وبذل في ذلك جهد مستطاعه ،وكان لابد له من إطراء ولي نعمته وإسناد كل الخصال والمحامد له ولأجداده . [28]حتى انه نسبهم إلى آل البيت،ذلك أنهم حسب شجرته العائلية ينحدرون من سلالة رسول الله صلى الله عليه وسلم [29] ولم يكن الوحيد الذي شرفهم بزعمه انتماءهم لآل البيت الأطهار .، فقد برز غيره من أصحاب هذه النظرية من أمثال لسان الدين بن الخطيب الذي أورد إثباته لهذا الادعاء في سينيته المشهورة في مدح السلطان أبي حمو موسى الثاني[30] ،وقد أورد المقرى في نفح الطيب أنها قصيدة نالت قصب السبق[31]، حيث أشار فيها مخاطبا أبا حمو :

من أنكر الفضل الذي أوتيته

جحد العيان وأنكر المحسوسا

من دان بالإخلاص فيك فعقده

لا يقبل التمويه و التلبيسا

والمنتمي العلوي عيصك لم تكن

لترى دخيلا في بنيه دسيسا

بيت البتول ومنبت الشرف الذي

تحمي الملائكة دوحه المغروسا[32]

وعلى الرغم من قيمة كتاب "نظم الذر " التاريخية والأدبية فإن صاحبه قد تغاضى عن ذكر مساوئ الزيانيين مكتفيا دونها بذكر المحاسن وتعداد المناقب حتى ظهر عليه التملق وترك مجالا للظن أنه إنما فعل ذلك رهبة وخوفا ،" وإن عدد المؤرخين الذين قاموا بتملق مماثل لكثير في كل الحضارات وفي كل اللغات . وذلك لأنهم كانوا يكتبون في الغالب في ظروف مماثلة للظروف التي كتب فيها التنسي ،ولهذا جاز لنا أن نقول أن هذه الطريقة هي التي كانت سائدة في تلك العهود الغابرة ، وقد كانت وحدها المقبولة من طرف الدول القائمة يوم ذاك ..."[33]

ومع ذلك فقد لاقت مؤلفاته الأدبية تأثيرا في نفوس الناس ،وقد تدل على ذلك النعوت التي نعته بها معاصروه من العلماء والمترجمين ، كا لونشريسي الذي لقبه بالحافظ ، وهي كلمة لا تطلق إلا على حافظ الحديث النبوي الشريف ،ونعث أيضا ب:الأديب ، لمطلع، قدوة الأدباء...[34]

وللحافظ التنسي قصيدة مطولة في مدح المتوكل وأبنائه الستة نسجها علي منوال القصائد التقليدية في الشعر العربي من حيث مطلعها وتقسيمها وتسلسل أجزائها، كما شابهت الشعرالقديم في معانيها وصياغتها اللفظية،فمعظم الخصال التي أسندها إلى ممدوحيه كانت مطروقة ومبتذلة، لم تظهر عليها روح الإبداع والابتكار .وذلك بالرغم من اتساع ثقافته الأدبية وتشبعه الواضح بشعر القدامى.ولعل شاعرنا معذور أمام كثرة الشعراء الذين كانوا يحومون حول القصور في انتظار فرصة لإلقاء قصيدة في مدح الأمير علّهم ينالون جائزة على زخارفهم اللفظية .

غير أنها وللأسف الوحيدة التي انتهت إلينا من بين قصائده لأنه أدرجها في آخر الباب السابع في بيان شرف بني زيان من كتاب" نظم الذر".حيث ذكر في أثناء الحديث عنها أن له قصائد أخري في باب المدح أراد إدراجها في كتاب كان ينوى تصنيفه في مدح ولي نعمته "المتوكل "، غير أنه لم يبلغنا منها كثير ولا قليل .الأمر الذي يدعونا إلى التساؤل إن كان التنسي قد طرق أغراضا شعرية أخرى غير المديح؟أو

تقرب بأمداحه من سلطان آخر غير المتوكل؟وذلك أمام غياب كلي لأشعاره عن كتب المتأخرين " فحتى أحمد المقري الذي ذكر في عدة مناسبات اسم التنسي وأشار إلى بعض آثاره سواء في "نفح الطيب " أو "أزهار الرياض " ، لم يرو شيئا من شعره ". ولعل هذا ما يبرر موقف بعض الدارسين من كونه مؤرخا وناثرا قبل أن يكون شاعرا .[35]

غير أن هذا الرأي النقدي لا يحجب عنا حقيقة أن هذه القصيدة قد أبرزت شاعرية التنسي وشغفه بالصور الفنية بغض النظر عن كونها جديدة أو مبتذلة ،حيث أنه استرسل فيها بفيض من القول بلغ به أربعة ومائة بيت ،حرص فيها كل الحرص على حسن انتقاء الألفاظ وسلامتها وبهاءها وتجنب الغريب منها وزاد عليها رونق التركيب والسبك ، فجاءت قصيدته عذبة الألفاظ موسيقية النغم ،يستشف من خلالها قيما تاريخية وفنية عدة .

أرقت لدمـع من جفوني ينحط
كنثر نفيس الدر إن خانه السمط
خطا النص والأعناق في أرض وجنتي
فخدد أخدودا بخدي ’ذا يخط
أثارته نارا في الجـوانح سعرت
تعجب لمزن حين تسطو لظى يسطو
فطورا تراني من غزارة دمعتي
غريقـا ببحر ما يبين به شط
وطورا حريقا من سعير جوانحي
فيبدو بظهر الجسم من لفحه نفط [36]

ولهذا يبقى "نظم الدر " أحد الأركان الثلاثة التي يعتمد عليها الباحث في تاريخ بني زيان وتاريخ المغرب الأوسط . فهو إلى جانب كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون الذي قدر له أيضا أن يصل إلينا ،قد كان أكثر المصادر توغلا في مجريات الأحداث التاريخية والإبداعية بتلمسان الزيانية ، أما المصدر الثالث الذي هو" بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد "، ليحي بن خلدون فقد بقي مغمورا إلى يومنا هذا.

هوامش وإحالات

(1) تاريخ الجزائر العام ،محمد الميلي،ص436

(2) وقد تصل إلى حد أن يتقاتل الولد مع أبيه (قتل بن تاشفين لأبيه أبي حمو موسى

(3)هذه القبائل لم تكن خاضعة لأي طرف

(4)دراسات في الأدب المغربي القديم ،عبد الله حمادي ،دار البعث للطباعة والنشر ،قسنطينة 1986،ص113

(5)مقدمة بن خلدون ،دار القلم ،بيروت ط1. 1978 ،ص181 ،أنظر أيضا دراسات في الأدب المغربي القديم،ص125

(6)المصدر نفسه ،ص180

(7)يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية وحكم بين سنة 633هـ و681هـ

(8)تاريخ الجزائر العام ،محمد الميلي ،ص454

(9)تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ،مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ،محمد بن عبد الله التنسي ،تحقيق محمد أبو عياد ، الجزأر ،1985 ،ص130 ،وانظر أيضا تاريخ الجزائر لمحمد الميلي ،ص130 .

(10)المصدر نفسه ،ص123

(11)الرحلة العبدرية محمد العبدري البلنسي ، ثحقيق أحمد بن حدو ، مطبعة البعث ،قسنطينة ،ص9

(12)نفح الطيب ،المقري ،ج5، 370. 371

(13)المصدر نفسه، ص370، 837

(14)مجلة الفضاء المغاربي ، العدد الثالث ، ص186

(15) البستان في ذكر الأولياءوالعلماء بتلمسان ،ابن مريم التلمساني ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر 1986 ،ص11

(16) نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ملوك الدولة الزيانية ، تحقيق بو طالب محي الدين ،الجزائر ،ص23

(17)المصدر نفسه ،ص23

(18) نفسه ،ص24

(19) تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ،محمد بن عبد الله التنسي ،ص179

(20) نفسه ،ص161

(21) من أعلام تلمسان ، أ_د محمد مرتاض ،ص 10

(22) دراسات في الأدب المغربي ،عبد الله حمادي ،ص124

(23) المصدر نفسه ، ص124

(24) مقدمةا بن خلدون ،ص180 _ 181

(25) النقد المغربي القديم ،أ-د محمد مرتاض ،ص37

(26)ديوان بن الخلوف القسنطيني ،ص9 _ دراسات في الأدب المغربي القديم ،ص100

(27) نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، التنسي ،ص13

(28) تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ،ص60

(29) نفسه ،ص43_

(30) نفسه ،ص 70

(31)نفح الطيب للمقري،ج6، ص195

(32)نفسه ،ص198

(33) تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ،ص69

(34) نفسه ،ص20

(35)نقسه ،ص75 فما بعدها

(36) نفسه ،ً258_259 .